

## من جبرئيل النبي

« كل شيء يزدهر في مملكة تخرج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها «لابروير» في كتابه «الأخلاق» تقابلها كلمة أخرى في كتاب للمهند عن رجل دخل على ملكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصل ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت في نفسي إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادئ السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هي الجسم والملك هو « الرأس » بمعناها الطبيعي «الفسولوجي» . هذا صحيح لاربيب فيه ، والملك هو الحاكم المطلق في نظام الملكية المطلقة . أما والأمة في النظم الديمقراطية هي التي تتولى الحكم فمن الحق أن تساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم في شبابها كالفتى ، تسهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهي تجمع كل السلطة لتمطيها ذلك الحاكم المطلق الذي يدير كيائها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضي أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة في طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها السادية بنفسها ، وتترك ملكيها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقي من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا ترى الملك في الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادي إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس في جسم الانسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكري لأمتة وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبي والمادي في الدولة بطابع الحضارة . فالملك في كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه في الأمة الفتية رأس فتى ، وفي الأمة العريقة رأس رجل .

توضيح المحرر

إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خوارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره أربعائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسر منها فقط (١)

وفي أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الدهن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكي نتصور ما أحيط به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النماء والفخامة والترف . فقد شاء خوارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة زهرة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد في نهاية كل مرحلة منزل ومير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت في هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع في ركب ملكي عظيم يشرف عليه ابن الخصاص متدوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبها عمها البلسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسرون بها سير الطفل في المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصرأ قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل ما يصلح لئلا في حال الإقامة ، فكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصرأ ينقل من مجلس إلى مجلس » (٢)

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد في فاتحة المحرم سنة ٢٨٢ هـ فأنزلت في دار صاعد . وكان المتضد غائباً بالموصل ؛ فلما علم بمقدمها عاد إلى بغداد ، وزفت إليه في الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حلالا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجلالها وخلالها البارعة ، وتفوقت في حظوتها لديه على سائر حظاياها . ومما يروى أن المتضد خلاها ذات يوم في مجلس أنيس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق في النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت به علي ، ولكن فيما أدبني به أبي أن قال : لاتنهي مع الجلوس ، ولا تجلسي مع التيام » (٣)

محمد عبد الله عثمان

(١) الفرزى في المخطوط ( الطبعة الأهلية ) ج ٢ ص ١١٢

(٢) الفرزى في المخطوط ج ٢ ص ١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨